

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
جامعنا القرآن الكريم والعلوم الإسلامية



مركز بحوث القرآن الكريم والسنة النبوية
المؤتمر العلمي العالمي الثاني

التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون

بحث بعنوان :

التواؤم بين آيات الله القرآنية وآياته الكونية

أ.د . علي الطاهر شرف الدين

المحرّم 1430هـ - يناير 2009م

الخلاصة

القرآن المجيد رسالة الله الخاتمة لبني الانسان؛ فيه تتسق الدلالات القرآنية لآياته تعالى الكونية مع الدلالات الكونية لآياته القرآنية، ويتلازم في الخطاب القرآني روعة الاعجاز الرفيع مع دقة الايجاز البديع. فهو كلام الله وأمره في خلقه، وما يجري في الكون هو من سننه وفعله. فلا يكون بين كلامه عز وجل وفعله إلا التواءم والالتام والتناغم والانسجام والتكامل والانتظام. وتتجلى روعة هذا التواءم والاتساق، بين آياته تعالى في القرآن وآياته في النفس والآفاق. وذلك كلما اتسعت مدارك المتدبرين وتبلورت رؤى المتفكرين في دلالات هذا الكتاب الحكيم وفهم بيانه القويم عن تغاير الاشياء وتباينها وتكاثر الاحياء وتفرعها وتناظر الاسماء وتنوعها.

في هذا البحث رؤية عن المزاجية بين ما تضمنه كتاب الله في وحيه من هداية وأحكام، وما ينطوي عليه خلق الله في الكون من سنن وإحكام.

مقدمة:

القرآن الحكيم خاتم رسالات الله الى البشرية. فهو منذ نزوله خطاب لكل انسان في كل مكان وزمان. وقد حفظه الله تعالى من التحريف والتبديل وجعله خالداً لا تتقطع هدايته، تتواصل عبر الأجيال، وتتطور مع كل حال. يتجدد عطاؤه وتتعمق دلالات نصوصه كلما اتسعت آفاق المتدبرين وتطورت معارف المتفكرين في ما يعتمل في الكون من حدث محسوس وما تنفعل بتأثيره النفوس. أي أنه كلما ترققت مدارك العقل الانساني في مدارج العلم بطبائع الاشياء ومسالك الاحياء تكشفت له دروب من المعرفة وضروب من العلم بدلالات أي الكتاب العظيم. وهو كتاب شامل مهيمن على كل المعارف، متصل العطاء لا ينضب معينه. فهو مصدر للهداية بكل وجوهها، إذ لا تقتصر على هداية النفس لتزكيتها وفلاحها بل تشمل كذلك هداية العقول لرشدها وصلاحها. فهي هداية لمعرفة حقائق الوحي كما هي هداية لمعرفة حقائق الكون. وحقائق الوحي تستمد اساساً من علوم الدين وحقائق الكون تكتسب اساساً من علوم الطبيعية، ولكن بين هذه وتلك تكامل. فالعلم المستمد من الوحي يرشد الى المقاصد ويجب على السؤال: لماذا؟ وكل ما يتعلق بالغيب المستور، والعلم المكتسب يجب على سؤال: كيف؟ وكل ما يرتبط بالكون المنظور. وكلاهما يسهم في تجليه الحقيقة في تواءم وتكامل وانسجام، ودون تعارض أو تناقض وانقسام. والكشف عن هذا التواءم بين الآيات القرآنية والآيات الكونية إنما يتأتى من خلال نهج رشيد في المزاجية بين مدلول النص القرآني وما يفضي اليه العلم الطبيعي. فهذه المزاجية يجب أن تكون على درجة كبيرة من الدقة والحيطه والحكمة دونما اقحام لأي الكتاب الحكيم في غير دلالتها أو اعتساف لمعانيها أو تهافت في تحميلها غير ما تحتل لتوافق نظرية علمية عن ظاهرة طبيعية، أو عكس ذلك محاولة تطويع مفهوم عن نظرية علمية عن ظاهرة طبيعية والزج بها لموافقة فهم سطحي لأية قرآنية. فالقرآن حمّل أوجه، ونظريات العلم الطبيعي قابلة للتعديل. لذلك فالمزاجية القويمة إنما تكون بين فهم سليم للنص القرآني عن ظاهرة كونية وفهم قطعي الدلالة عن حقيقة هذه الظاهرة. وهذا ما نعنيه بالتواءم والتكامل بين علوم الوحي وعلوم الطبيعية. وهذا التكامل إنما يعبر عن وحدة الغيب والشهادة التي تتم عن وحدانية الخالق.

وحدة الخلق بين عالمي الغيب والشهادة:

إن ما يدركه الانسان أو يمكن أن يدركه في الطبيعة بحواسه هو ما نسميه عالم الشهادة. إلا أن في الطبيعة ما يستحيل إدراكه بالحواس أو بأي وسيلة مساعدة، إما بسبب

وجوده في أطراف الكون القاصية أو بسبب حدوثه في الماضي أو المستقبل. علماً بان ما ندركه الآن من حالة الكون بواسطة الضوء الصادر من النجوم البعيدة إنما يصف حالته في ماضٍ سحيق، ذلك لأن الضوء وإن كانت سرعته كبيرة إلا أنها محدودة. وهكذا فإن ما نشاهده من حولنا في الكون محدود بحدود الزمان والمكان، ويستحيل تجاوز هذه الحدود عن طريق حواسنا. إلا أن ما وراء هذه الحدود يمكن تصوره عقلاً، بل يمكن وصفه من خلال القانون الطبيعي بحسبه امتداداً لما نشاهده بحواسنا. هذا الامتداد العقلي للكون المشاهد غيب نسبي من حيث ارتباط وجوده بالظرف الزماني والمكاني. أما الغيب المعرف بالألف واللام أو الغيب المطلق، هو وجود لا يمكن وصفه أو تفسيره بأي قانون طبيعي. ولكن بالطبع فهو محكوم بناموس الوجود الذي يشمل الغيب كما يشمل الشهادة. ومن هذا نجد أن عالم الغيب يحيط بالكون الطبيعي المادي ويسمو عليه ليس من حيث المكان بل من حيث مرتبته في عوالم الوجود، إذ يصير عالم المادة هو أدنى هذه المراتب، وهو ما يسمى بالسماء الدنيا بكل ما تحويه مما نشاهده أو ندركه في هذا الكون الشاسع. والعلم عن ما يعلو على السماء الدنيا لا يدخل في إطار العلم الطبيعي ولكن يستمد من الوحي الذي فهمنا منه أن الله (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا...) [سورة الملك: الآية 2]، قد رتب بناء الوجود من هذه السماوات أو الطبقات السبع حيث يسمو بعضها على بعض في المرتبة، ولكنها تتحد في الخلق. والعلم بما يليها من السماء الدنيا المتمثل في العلم الطبيعي محدود بمحدودية حواسنا وقاصر بقصور ادراكنا ولكنه متطور أبداً كلما اتسعت دائرة هذا الإدراك، وكلما تعمقت معرفتنا بما يعتمل في الكون وفي الطبيعة وفي الحياة.

إن سمو عالم الغيب وتضمنه الكون الطبيعي ينسجم مع شمول الوحي وهيمنته على العلم الطبيعي ومن ثم يدل على وحدة العلم وحدة الخلق بين عالمي الغيب والشهادة وارتباط كل ذلك بأصل واحد مستمد من الذات المتفردة بأحدثها المتميزة بصمديتها. وهنا يجب ألا يُخلط بين ما نُعنيه من وحدة الخلق في هذا السياق وما ذهب إليه بعض الغلاة من مقولة "وحدة الوجود" التي لا تتفق في مضمونها ومراميها مع ما يعالجه هذا البحث. أما هذا البحث فيتناول من خلال هذه العلاقة التوحيدية التوائم بين العلم المستمد من الوحي مع شموله والعلم الطبيعي مع قصوره.

قصور العلم الطبيعي:

من هذا يمكن النظر إلى العالم الطبيعي وما يحدث فيه من ظواهر بحسبه مظهراً لوجود غيبي. ومن ثم يصير العلم الطبيعي مدخلاً للإيمان بالغيب من حيث أن الاعتقاد بحقيقة ما يجري في عالم الشهادة وتبيين حدوده يستوجب الإيمان بالغيب الذي يمتد وراء هذه الحدود بلا حدود.

كما أسلفنا في ما ذكرناه من أوجه القصور في العلوم الطبيعية والتي كشفت عنها النظريات الحديثة، فإن الباحث المتعمق في دراسة سلوك المادة لابد وان يجد نفسه عند أعتاب الغيب. فالأجسام المادية – كما يمكن تصورها – ليس إلا حالات اختزان للطاقة أو مظاهر لتكوينات متكاثفة وسط وجود ذي طبيعة غيبية على نحو مشابه لقطعة ثلج في بحر تجمدت عن مياهه أو قطرة ماء تكاثفت عن بخاره. وهذه الطبيعة الغيبية يعضدها مبدأ عدم التيقن في الطبيعيات الكمية المؤسس على خاصية "التقطع" في حالة الجسيمات الدقيقة، الذي يمكن تصوره من خلال ازدواجية جسيمية – موجية أو (مادية – غيبية) تجعل وجود هذه الجسيمات احتمالياً لا قطعياً في المكان والزمان.

من هذا يمكن الكشف عن حقيقة مهمة، وهي أن العالم الطبيعي المنظور ليس إلا تجليات لعالم غيبي مستور. أي أن أصل المادة ومنشأها وجود غيبي. ومن هذه التجليات والتي يمثل عالمنا صورة منها نشأ الكون والطبيعة وما يعتمل فيها من تفاعلات. في القرآن أعظم تجليات الغيب:

تتفاوت تجليات الغيب من حيث الدرجة في المخلوقات؛ فهي في أدنى هذه الدرجات تتمثل في الجمادات التي نعني بها الأجسام القاصرة بذاتها عن الحركة ما لم يؤثر عليها مؤثر خارجي. وتتجلى الطبيعة الغيبية بمستوى أكبر في الأحياء وما ينطوي في سلوكها من غرائز، متدرجة من الحياة النباتية إلى الحيوانية. وأبرز درجات هذا التجلي هو خلق الانسان بما تفرد به من خاصية أعمال العقل في إدراك قوانين الطبيعة وسنن الكون. وأرقى تجليات الغيب تكون لدى نماذج من البشر اصطفاهم خالق الوجود لتبليغ ما لا يستطيع العقل بلوغه، هم أنبياء الله وحمله رسالاته الذين يمكن أن يطلعهم على غيبه (عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) [سورة الجن: 26-27] وعلى رأس هؤلاء أتى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي ذروة هذه التجليات وأروعها أوحى الله إليه القرآن الحكيم كتاباً شاملاً ومهيماً على كل المعارف، معبراً عن أعظم تجليات الغيب، ما فرط الله فيه من شيء، هادياً لمعرفة تعالي ولمعرفة سننه في خلقه. وبهذا يتسم هذا الكتاب المجيد بخطاب ذي خصائص تتم عن ايجازه في البرهان وإعجازه في البيان.

في البيان.

خصائص القرآن:

ليس كلام الله كأي كلام. فالقرآن ليس خطاباً ينتهي معناه عند دلالات ألفاظه في مجال معين أو وقت معين. ولكنه رسالة الله إلى البشرية في كل مكان وعبر كل زمان. لذلك سميت الجملة المكونة لألفاظه آية يتنامى معناها ويتسع كلما ترقى العقل الانساني في مقدراته على استيعاب دلالاتها. وللسبب ذاته فإن المفسرين لم يقيدوا تفسيراتهم لأي القرآن بأسباب نزولها لأنهم وعوا حقيقة أن كلام الله أعمق من أن يقصر على معني واحد. كما انهم كانوا على درجة عالية من التأدب مع هذا الكتاب العظيم. فكثيراً ما ورد في تفاسيرهم افادات مثل قولهم: هذه الآية تعني فيما تعني، وقولهم: الله أعلم. ولعل ابلغ صور التأدب ماروي عن ابي بكر الصديق - وهو من هو في الاسلام- عندما سئل عن معنى الكلاله، الواردة في سورة النساء، إذ أجاب: أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان. والله ورسوله بريئان منه. وقد أفاد المقصود من المعنى. وأخذ به عمر (ر) قائلاً: إني لاستحي أن أخالف ابا بكر في رأي راه. وقد أجمع على هذا المفسرون من بعده. ودرجة الفهم والإحاطة بمعاني الآيات ودلالاتها تزيد بزيادة العلم الذي يزيد مع التقوى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [سورة الانفال: الآية 29]. كما أن التقوى تفتح البصيرة في التفريق بين ما يلتبس على الناس (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا) [سورة الانفال: الآية 29].

ومع عمق دلالات القرآن فإنه في ما يفيد الذكر يناسب كل الناس ويخاطب كل مستويات العقل، إذ جعله الله ميسوراً في لفظه (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) [سورة القمر: الآية 17] ، كما جعله بيتاً في مدلوله (إِنَّ هُوَ إِلَّا نُكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) [سورة يس الآية 69] هذه الصفة في كتاب الله التي تجعله ميسور الفهم للذكر عميق المعنى للفكر يكون القرآن هو الرسالة الخاتمة لبني الانسان. ولم يؤمر رسول الله إلا بتبليغها وتبيينها (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [سورة النور: الآية 54]. لذلك فإنه عليه السلام لم

يعتمد إلى تفسير آيات القرآن حتى لا يقصر معناها في دلالة محدودة فلا يجروا أحد بعده على مخالفة تفسيره فينخلق بهذا باب الاجتهاد والتفكير فيها لهذا فقد تعددت تفاسير القرآن مع تعاقب الاجيال والحقب. وقد كان عليه السلام يكتفي بالاشارة لآية تتعلق بامر ما إذ يقول: أقرأؤ إن شئتم كذا ويذكر الآية ولا يفسرها بل إنما يبلغها. فلقد دعى النبي المؤمنين يوم حجة الوداع وقال: **بلغوا عني ولو آية**. وقال في الموقف ذاته: **فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ورب مبلغ أوعى من سامع**. أي أن من يُبلغُ آية قد يعي معناها أكثر ممن يحملها. وقد طلب ممن استمعوا إلى مقالته ووعوها أن ينقلوها عنه كما سمعوها دون زيادة أو نقصان. وفي هذا اشارة إلى أن أجيالاً لاحقة من المؤمنين قد يكتشفون في القرآن ما لم يكتشفه من سبقهم كما أن فيه سر خلوده وإعجازه كلما تنزلت معانيه على الأحداث والظروف لكل زمان ومكان.

في ضوء هذه الصفة التي ينفرد بها كتاب الله وما أوردناه عاليه من فهم لآيات الله الكونية وحقائق الوجود وعلاقة الغيب بالشهادة وأصل المادة، يجب أن ندرك أن كلام الله هو أعظم وأروع تجليات غيبه وربوبيته للكون. وعلى هذا يجدر بنا دراسة خصائص القرآن الحكيم سيما التي تعبر عن إعجازه في مجال العلوم الطبيعية والمعرفة الكونية، وذلك من حيث شموله هذه المعرفة وحفظه وثبوت حقائقه وثباتها في كل مكان وخلودها في كل زمان، ومن حيث أنه مجال للبحث والتفكير وطريق للهدى والاستقامة. وهنا يمكن – في إطار هذه المعرفة الكونية – مناقشة خصائص هذا الكتاب العظيم من الجوانب الآتية:

أولاً: خاصية شموله المعرفة الكونية:

لقد أسلفنا القول بأن الكون المنظور إنما يمثل حالة محدودة من وجود غيبي أوسع من أن ندرك طبيعته، وأن القوانين التي تصف السنن الكونية إنما تمثل حالة خاصة من ناموس الوجود. ولذلك فإن العلم الكوني لا يعدو أن يكون جزءاً من المعرفة الكلية. وهذا واضح من قصوره المرتبط بمفاهيم المكان والزمان والمادة، أو من ناحية أخرى، بتاريخ نشوء الانسان على وجه الأرض ومدى إدراكه المعرفي. بهذا فالعلم الكوني أو الطبيعي لا يخرج عن ما يتوصل إليه العقل الانساني من حقائق عن الكون والطبيعة. والقرآن وهو يقرر (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) [سورة الانعام: الآية 38] يورد كثيراً من هذه الحقائق الكونية تصريحاً أو تلميحاً، وفي ما سوى ذلك يحرض العقل ويحثه على التدبر والتفكير والنظر في آيات الله. ويأتي الخطاب القرآني في ما يتعلق بآياته تعالى الكونية على ثلاثة وجوه؛ اخبار عن حقائق يمكن اختبارها، وحقائق لا يمكن اختبارها وحقائق يمكن استنباطها وسناتي لمناقشة كل منها في الآتي:

(أ) حقائق قابلة للاختبار:

وهذه نعني بها الإخبار عن حقيقة كونية يمكن اختبارها وإثباتها بالتجربة أو المراقبة كما في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [سورة الذاريات: الآية 47]. فإتساع السماء الكوني حقيقة توصل لها علماء الطبيعيات والكونيات وأثبتت حديثاً بالقياس الفلكي. وهي حقيقة لم يكن المفسرون الأوائل في وضع يمكنهم من ادراكها. وهناك من الحقائق ما يمكن الاستيقان منه بالتجربة كما حدث حتى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الاستشفاء من استطلاق البطن بعسل النحل التي: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [سورة النحل: الآية 69]. وهؤلاء المتفكرون هم الباحثون في علوم الأحياء والكيمياء والصيدلة والطب، وفي سلوك النحل، وفي التركيب الكيميائي للعسل، وفي كيفية الاستفادة منه في الاستدواء. ولقد رد

رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة على من استعجل شفاء أخيه فتشكك في فائدة العسل بقوله: **صدق الله وكذبت بطن أخيك اذهب فاسقه عسلاً.**

(ب) حقائق غير قابلة للاختبار:

نقصد بذلك الإخبار عن حقيقة كونية مستنبطة من قانون طبيعي ولكن يستحيل اختبار صحتها بطريق التجربة أو القياسات العلمية فيما يؤمن به علماء الطبيعة – مثلاً – إزاء بداية خلق الكون. فهؤلاء العلماء يصفون كيفية حدوث هذه البداية في الماضي السحيق قبل ما قد يصل إلى نحو عشرين بليون عاماً كما يتحدثون عن نهاية الكون في المستقبل البعيد. ويسود الاعتقاد لدى علماء الكونيات أن المادة الكونية - بما في ذلك الأرض - كانت رتقاً مندمجاً فانفجرت في انفجار هائل لم يستغرق من الزمن أكثر من برهة متناهية في الصغر، حيث انطلقت طاقة عظيمة جعلت درجة الحرارة تفوق 10 بليون درجة، تناقص مقدارها عبر الزمان مع اتساع مطرد في البناء الكوني حتى بلغت درجة من البرودة اتاحت للجسيمات الأولية أن تتألف مكونة الذرات. ثم مع تزايد البرودة والانتساع تشكلت أجزاء الكون المنظور من مجرات ونجوم بالإضافة للمنظومة الشمسية بما فيها الأرض وما على الأرض من ماء وحياة منشؤها هذا الماء. ثم أن هذا الكون سيواصل اتساعه إلى أن يؤول إلى فناء حراري محتوم لم يحدث بعد - والحمد لله على ذلك - مما يؤكد بداية الخلق وعدم أزلية الكون، إذ لو كان أزلياً - كما يدعي الماديون - لكان هذا الفناء الحراري قد حدث في الماضي. ويعتقد انه عندما يحدث هذا الفناء الحراري بعدما يستنفذ الكون كل طاقته في عملية الانتساع يصير خمود شامل يعقبه انكماش وانطواء إلى الداخل في أجزاء الكون ليعود كما بدأ.

هذا النموذج الذي يؤمن بعلماء الطبيعة يتحدث عن بداية ونهاية الكون، وكلاهما غيب لا تحيط عقولنا بكنهه. ومن المفارقة أن الكثير من الملاحدة الذين كفروا بالخلق يؤمنون بهذا النموذج الكوني الذي يدل على حقيقة الخلق. فها هو القرآن يخاطبهم مستقراً: **(أَوْلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)** [سورة الأنبياء: الآية 30] إلا أن هذه الافادة القرآنية اشمل دلالة من ما يفرضي إليه النموذج الكوني إذ أنها لا تتعلق فقط بالكون أي بالسماء الدنيا بل تشمل الوجود كله بكل سماواته. وفي هذه الآية إعجاز بين من أن الذين كفروا - وليس الذين آمنوا - هم من رأوا هذه الحقيقة ابتداءً. كما يستقرهم بقوله تعالى: **(أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)** [سورة العنكبوت: الآية 19]. حيث أكد القرآن نهاية عمر الكون بقوله تعالى: **(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)**. [سورة الاحقاف: الآية 3] كما بين القرآن كيف ينتهي هذا الكون: **(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)** [سورة الأنبياء: الآية 104]. كذلك يؤكد القرآن أيلولة كل شيء إلى الهلاك: **(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**. [سورة القصص: الآية 88] ومثل ذلك قوله تعالى: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)** [سورة الرحمن: الآيات 26-27]. وهذه الآيات تتحدى الذين كفروا وتجعلهم في ورطة إن لم يؤمنوا بالخالق.

(ج) حقائق قابلة للاستنباط:

ونعني بهذه ما تتضمنه الآيات من إثارة لقضايا تتعلق بحقائق في الكون كمتعلق بالغيب وتدعو إلى التدبر والنظر والتفكر في ملكوت الله واستنباط ما يفرضي إليه ذلك من علم عن الطبيعة والحياة. والقرآن يذخر بالخطاب التوجيهي مثل قوله تعالى: **(أَوْلَمْ يَنْظُرُوا**

فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [سورة الأعراف: الآية 185]، أو قوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [سورة العنكبوت: الآية 20] وكذلك قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) [سورة نوح: الآيات 15-16].

والسؤال عن خلق السموات، وهو أمر غيبي، مقرونا بوصف لطبيعة الشمس والقمر، مثار لقضية تجمع بين العالم المستور والعالم المنظور. والخطاب القرآني كثيرا ما يمزج بين الإخبار عن الغيب والإخبار عن الطبيعة والفطرة والحياة بحسب أنها علوم تتكامل للكشف عن حقائق الوجود. ولهذا فكتاب الله هو المصدر الجامع للمعرفة في كل مناحيها، وتبيان لكل شيء فيها، حيث يقول الحق: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [سورة النحل: الآية 89].

إن وظيفة الرسول عليه السلام أن يبلغ الرسالة ويبين للناس ما نُزِّلَ إليهم فيما يتصل بعلاقتهم بالخالق وبالمخلوقات من حولهم حسب قوله تعالى: (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) [سورة المائدة: الآية 67]، أو قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ). [سورة النحل: الآية 44] ولكن مع ذلك فإن القرآن كان يصرف الرسول عن الإجابة على الأسئلة التي يُقصد بها شرح ظاهرة طبيعية كسؤالهم في علم الأحياء: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَزَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) [سورة البقرة: الآية 222] فلم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في ما يفيدهم في أمر دينهم أما ما يحدث للبويضات داخل الرحم فمتروك للعقل البشري لاكتشافه. ومثل ذلك سؤالهم في علم الفلك: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [سورة البقرة: الآية 189] فكانت الإجابة في ما يهم السائلين في حياتهم وعبادتهم أما كيف يتحول الهلال إلى بدر ثم يصير مُحاقاً وعلاقة ذلك بحركتي الأرض والقمر، فما بُعث الرسول لبيان ذلك. والإجابة على مثل هذه الأسئلة متروكة ليتوصل إليها الانسان كلما ترقى في أعمال عقله متدبراً آيات الله في خلقه ومتفكراً في ملكوته، فيكتشف القوانين التي تحكم وتصنف ما ينجم في الكون من ظواهر.

مما أوردنا يمكن الخلوص إلى أن القرآن، وهو الكتاب الجامع لعلوم الوجود، يشمل علوم الكون بحسبه جزءاً من هذا الوجود. وتأتي الحقائق الكونية في سياق النصوص القرآنية إما بوجه صريح يدل عليها، أو بتوجيه للعقل ليكشف عنها. وفي الحالتين فإن مقدار ما نستمد من حقائق كونية من القرآن يزيد كلما تدبرنا آياته وكلما انعمنا النظر في آيات الكون.

ثانياً: خاصية حفظه وديمومته:

حقيقة أن القرآن شامل لكل ضروب المعرفة ومهيمن عليها وأنه مصدر للعلم بحقائق الكون والوجود ما عُلِمَ منه وما لم يُعلم، يعني أنه خالد ومتجدد العطاء لا ينضب معينه مع الزمن. وتجدد العطاء يفيد خطاب الله للانسان المتصل عبر الزمان. فهو محفوظ في كلمات الله لا يعتريه التبدل إذ: (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) [سورة الكهف: الآية 27] تعالى، ومحفوظ من التحريف والتزييف: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) [سورة فصلت: الآية 42]. ولقد أكد الله هذا الحفظ بقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [سورة الحجر: الآية 9] ومع تطور حال المخلوقات عبر الزمان وكلام الله عن الحقائق الكونية ثابت لا يتبدل مثلما لا يتبدل خلقه للكون حيث: (لَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِ اللَّهِ) [سورة الروم: الآية 30]، أو ما يجري فيه من سنة: (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) [سورة الفتح: الآية 32]. (وَمَا كَانَ هَذَا



الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ... [سورة يونس: الآية 37] (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) [سورة الواقعة: الآية 77]. (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) [سورة البروج: الآيات 21-22]. وإضافة لهذا الحفظ الذي كفله الله لكتابه في ملكوت السماوات فقد سخر له من يحفظونه في صدورهم على ظهر قلب ويجودون نطقه ويدققون في رسم حروفه وتوثيق قراءاته وضبطها والتفنن في تلاوته وفي طرق كتابته وفي إحصاء عدد آياته وحروفه. ولقد تكشف أن هناك علاقات عديدة تحكم هذه الاعداد وغيرها في القرآن إذ كلها يقبل القسمة على العدد 19، وهذا اعجاز عددي يتفرد به كتاب الله. ثالثاً: خاصية ختمه للرسالات:

منذ أن وجد الله الناس على الارض بعث فيهم انبياء وارسل الرسل يحملون الهداية لكل قوم مبشرين ومنذرين (...وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [سورة فاطر: الآية 24]. وكانت هذه الرسالات على قدر ما تتسع له مدارك كل أمة. وما بلغت البشرية درجة من النضج وصارت أهلاً لتلقي رسالة الله التي تليي حاجة كل انسان وتخطب كل وجدان بُعث محمد هادياً وبشيراً ونذيراً بالقرآن رسالة الله الخالده للناس كافة. هذه الخاصية في القرآن التي تمثل خلوده وحفظه من التبديل مع شموله وتجدد عطائه للمعرفة في كل مكان وزمان تجعله رسالة الله الخاتمة للانسان. وفي هذه الخاصية يكمن سر إعجازه. وإعجاز القرآن تتعدد جوانبه. ومن هذه الجوانب سحره البياني الذي خاطب به الجيل الأول في صدر الإسلام. ونحن هنا لا نتطرق لكل جوانب الإعجاز القرآني وسنقصر تناولنا، أساساً - كما أشرنا آنفاً - على الإعجازات الكونية منها. رابعاً: خاصية اعجازه:

الآيات المعجزات في كتاب الله يتجلى انسجامها وتناغمها مع آيات الله في آفاق الكون وفي خلق الأنفس كلما ترقى العقل البشري في فهم قوانين الطبيعة وتعمق في فهم دلالات النص القرآني والانفعال بإيقاعاته. ولا يزال القرآن يخاطب العقلاء ممن التبس عليهم الامر فلم يتبينوا الحق: (سُورِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [سورة فصلت: الآية 53]، ويسألهم مستقراً: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [سورة ق: الآية 6]، أو يلفت نظر الانسان إلى خلقه داعياً: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) [سورة الطارق: الآية 5]. والعقل هو نعمة الله التي تتيح للانسان استنباط قوانين الطبيعة وتفتح بصيرته لفهم آيات الله المنزلات. وإن التعمق في فهم هذه القوانين والكشف عن سنن الله في ما ينجم من ظواهر طبيعية يفضي إلى اكتشاف أبعاد جديدة في معاني آيات القرآن، وبتطور مقدرات العقل البشري تنتسج دائرة استيعابه لمعاني هذه الآيات. والحقيقة أن الله منزل القرآن هو الذي يهب لطالبي المعرفة العلم بما يستجد فيها لتعميق فهمهم لهذا الكتاب كلما تقدم الزمان. فربما فهم المفسرون الأولون آية قرآنية على نحو يتناسب آنذ مع علمهم بخواص الأشياء وظواهر الطبيعة، لكن الآية ذاتها يمكن اليوم أن يتولد منها معنى أعمق، وقد يفهمها الجيل الذي بلينا بصورة أكثر عمقاً. وهذا الفيض المتجدد والمستمر من المعاني هو ما قد تُعنيه الآية: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [سورة الكهف: الآية 109] وهو ما نعنيه بالإعجاز القرآني والمنهل الرباني الذي لا ينتقص بالأخذ منه ولا يكتفي منه أخذ. وهو ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عبر عنه في وصف كتاب الله بأنه: لا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. لهذا تحدى الله تعالى المرتابين في كلامه: (وَإِنْ كُنْتُمْ

فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ [سورة البقرة: الآية 23] وبالطبع هم عاجزون حتى لو عاضدهم الجن في ذلك كما بين تعالى لرسوله: (قُلْ لَّئِن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [سورة الاسراء: الآية 88].

حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون:

إعجاز القرآن – كما أسلفنا – يتجلى في اتساعه لمخاطبة العقل البشري المتصلة على مر العصور في الكشف والتدليل على الحقائق. ويجب الاعتقاد بأن هذا العقل قاصر بطبيعته عن ادراك الحقيقة الكونية النهائية مما يجعله قابلاً للتطور مثلما أنه قاصر عن الإحاطة بكل دلالات آية من القرآن الذي تتسع أبعاد معانيه مع الزمن. كما يجب الاعتقاد بأن الحقائق الكونية، قطعية الصحة، لا بد وان تكون متوافقة مع ما يفضي إليه الفهم السوي لنصوص القرآن المتعلقة بهذه الحقائق. وانطلاقاً من هذا فإننا يمكن أن نقوم بنتائج النظريات الكونية بمعيار فهم صحيح لأي القرآن، كما يمكن تقويم فهمنا الظني لأي قرآنية بما ثبتت صحته من قوانين كونية. أي أنه يمكن اكتشاف حقيقة كونية من خلال فهم متبصر لنصوص قرآنية، كما يمكن إدراك وتطوير معنى أشمل لأي قرآنية من خلال فهم لحقيقة كونية قطعية. وبهذه المزاجية بين حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون تتفتح بصيرة المؤمن في ارتياد آفاق من المعرفة الكونية واستكشاف صور من الإعجاز عنها. وإن أبلغ معاني هذا الإعجاز هو ما يكون متعلقاً بالعلوم الطبيعية التي تُختبر فيها صحة الحقائق بالمراقبة والتجربة وتنضبط بالقياس.

والنص القرآني قابل لمخاطبة كل مستويات العقل عند الفرد خلال تطوره الحياتي كما هو قابل لمخاطبة العقل البشري بوجه عام من خلال ترقيته عبر القرون والأجيال. ويمكن ان نسوق بعض الأمثلة لصور الإعجاز القرآني التي تكشفت عنها معان عميقة بتطور العقل في مجال العلوم الطبيعية. من هذه أن المرء ربما يكتفي بفهم سطحي أو مباشر – مثلاً – عند قراءة قوله تعالى: (بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) [سورة القيامة: الآية 4]، ولكنه إذا تدبر روعة الخلق في الخلايا العصبية المتعلقة بحاسة اللمس وما في هذا البنان من دقة في ما تطبعه الانامل من بصمات يتباين رسمها عند أي شخصين حتى بين التوائم في الغالب الأعم، لعرفنا المغزى في تخصيص البنان للتدليل على قدرة الله، ولادركنا كم هو عظيم إعجاز الله في خلقه وفي قرآنه. ومثال ذلك إذا قرأنا قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ) [سورة يس: الآية 88]، لكفانا ما يُستقى من معنى مباشر لهذه الآية. إلا أنه خلافاً لما يمكن أن يتبادر للذهن من أن الشجر اليابس هو الذي يُجعل وقوداً، فإن نعته بالخضرة، والذي يبدو لفظاً زائداً من أول وهلة، يثير تساؤلاً عظيماً، ما كان لنا أن نجيب عليه إلا عن طريق معرفتنا المكتسبة من علوم الطبيعيات والأحياء والكيمياء وعلوم طبقات الأرض. فهذه العلوم تفيد بأن زيت النفط أو الغاز أو الفحم الحجري الذي تستمد منه في حياتنا المعاصرة وقوداً لتوليد الطاقة قد يكون ناتجاً من المادة الخضراء (اليخضور) في أوراق الشجر التي طُمرت تحت ضغط هائل في جوف الأرض منذ أمد بعيد كما يرى بعض المختصين، وإلا من المؤكد أن طاقة الاحتراق انما تنتج عن هذا اليخضور. ومن هذا يمكن ان نكتشف بُعداً أعمق ومعنى أشمل لما تتطوي عليه الآية دون ان يكون في هذا الفهم الحديث تناقض مع ما فهم في الماضي أو ما قد يفهم من ظاهر منطوقها. وقد لا يستوعب العقل ما ينطوي عليه لفظ قرآني ككلمة برزخ في قوله تعالى: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) [سورة

(الرحمن: الآية 18-19) ُ وربما تفهم هذه الكلمة بمعنى حاجز مقارنة بالنص القرآني: (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) [سورة النمل: الآية 61] ُ ذلك أن طبيعة الماء في البحرين متباينة كما تنص الآية: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا). [سورة الفرقان: الآية 52] ُ وهذا التباين هو الذي يُعزى إليه عدم اختلاط الماء المتحرك في البحرين فينشأ عنه هذا الحاجز البرزخي الذي يمكن تفسيره الآن في ضوء النظرية الجزيئية التي تصف سلوك التيارات السائلة. وهكذا فإن هذا المفهوم الجزيئي لكلمة برزخ كان مُكتنزاً فيها حتى كشفت عن دلالاته الطبيعية الجزيئية. واكتناز اللفظ الواحد لمعان واسعة من خصائص التعبير القرآني والتي ربما لا تُكتشف من أول وهلة، ففي قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [سورة الذاريات: الآية 47] ُ، مجال للتدبر في آيات الله من اتساع كوني أسلفنا الحديث عنه ومن أيبّد تحكم بناءه. فالأيبّد هي محصلة القوى التي تتصافر في حفظ توازن الكون وتماسك بنيانه. نعرف منها القوى التثاقلية والكهرمغناطيسية والنووية بتفاعلها الشديد والضعيف، وربما هناك قوى أخرى لمّا يكتشفها العلم الحديث.

فالقوة التثاقلية هي التي تجعل الأجرام السماوية متماسكة البناء كما يجعلها متوازنة في ما بينها، وهي التي تتجذب بفعلها الأجسام فتستقر على الأرض كما جاء في قوله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رَوَاسِي) [سورة النمل: الآية 61] ُ. وهذه الرواسي هي التي تحفظ توازن الأرض عند دورانها حول نفسها والتي ذكرت في آية أخرى: (وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) [سورة الأنبياء: الآية 21] ُ. والرواسي الشامخات هي التي تؤثر في حالة الطقس فينعقد ركام السحب عند قممها وتتكاثف الثلوج عليها وتذوب وتستحيل السحب مطراً تجري من هذه وتلك الانهار بماء فرات ينحدر من سفوحها بفعل جذب الأرض التي تكفت إليها كل حي وجماد كما قال تعالى في بيان ذلك مذكراً الانسان: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا. أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا. وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقِينَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) [سورة المرسلات: الآيات 35-37] ُ وإذا عرفنا أن القوة التثاقلية الجذبية هي التي تحكم نظام الكون الشاسع وهي التي تجعل الكواكب والنجوم وكل الأجسام المنظورة متماسكة متزنة، فإن القوة الكهربية والمغناطيسية هي التي تجعل الذرات المكونة للمادة كياناً مستقراً بفعل تجاذب نواة الذرة مع ما حولها من الكترونات مثلما تستقر الكواكب بافلاكها المدارية بفعل تجاذبها مع الشمس ومع بعضها بعضاً في المنظومة الشمسية.

وإذا غصنا داخل البناء الذري للمادة سنجد الجسيمات الدقيقة التي تتركب منها نواة الذرة مترابطة في ما بينها بقوة هائلة هي القوة النووية. وهكذا نجد أن البناء الكوني سواء في عالم الأجسام الجاهري أو الجسيمات المجهرية محكوم بمحصلة هذه القوى التي فتق الله بها الكون بعد أن كان رتقاً، كما أسلفنا شرحه. وهي التي يُعزى لها اتساعه الذي يؤكد القرآن بـ (إِنَّا) ولام التوكيد في (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) كما تؤكد المراقبة الفلكية.

إن النظرية التي يعتقد علماء الكونيات في صحتها عن البناء الكوني لا تخرج عن معاني آيات الانفتاح والاتساع المذكورتين آنفاً. وتعميق فهمنا لهاتين الآيتين يمكن تطوير هذه النظرية. وفي هذا مثال لقابلية القرآن للكشف عن حقائق المعرفة الكونية. وإذا استقرأنا ما توصل إليه العلم الطبيعي في ضوء آية الانفتاح لأفادنا ان الكون، بما فيه كوكبنا الأرضي الذي تقوم عليه الحياة، والسماء المحيطة به، بل واستصحاباً لمدلول

هذه الآية ليشمّل بقية السموات التي تكمل مراتب الوجود، كانت جميعها في حالة التحام ففتقها الله بانفجار هائل الشدة في زمن فائق في الصغر يقدر بجزء من مليون من الثانية تدل عليه "فا" التعقيب في قوله تعالى: (فَفَتَقْنَاهُمَا).

وتستطرد النظرية الكونية في وصف اتساع الكون وتناقص حرارته الذي أتاح للجسيمات أن تتألف مكونة الذرات ثم تآلفت الذرات لتكوين الأجرام السماوية والكواكب بما فيها الأرض. وتفيد هذه النظرية أنه في مرحلة من عملية تطور خلق الكون سمحت الظروف الطبيعية باتحاد ذرات الأكسجين مع ذرات الهيدروجين لتكوين الماء الذي أتاح نشوء الحياة على وجه الأرض. وهذا ما أخبرت به آية الانفتاق إذ اكتمل نصها بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) [سورة الأنبياء: الآية 30]. وذلك للارتباط المنطقي بين الانفتاق ونشوء الماء والحياة من خلال تسلسل عمليات الخلق. روعة التعبير ودقة التقدير:

والماء هو المركب الأساس في الكائنات الحية: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) [سورة النور: الآية 45] ولقد تكرر ذكر الماء في كتاب الله 63 مرة أغلبها في معان تذكر بهذه النعمة الشاملة التي جعلها الله متاحة في الطبيعة بحيث تغطي المياه 71% من سطح الكرة الأرضية. فهو موجود في الطبيعة في ثلاث حالات، صلبة وسائلة وغازية. لذلك فهو أحسن واق من انتشار الحرائق وانجع عامل لإطفائها مع أن جزيئاته مركبة من عنصري الهيدروجين شديد الاشتعال والأكسجين الذي يساعد عليه. وللماء استخدامات ووظائف كثيرة في الحياة. ولكي يؤدي الماء وظيفته الحيوية أودع الله فيه جملة من الخصائص الرائعة. فهو موجود على نطاق واسع في حالة السيولة كما يتبخّر ليشيع في الجو قادراً من الرطوبة الضرورية للحياة البيئية ويستحيل بخاراً عند درجة حرارة الغليان كما أنه يتحول إلى ثلج وبرد وجليد عندما تنخفض درجة حرارته إلى الصفر. وعند هذه الدرجة تقل كثافة الماء المتجمد ثلجاً فيطفو على سطح السائل. وبفضل هذه الخاصية الرائعة التي يتفرد بها الماء دون غيره من السوائل تجد الأحياء المائية مأمناً في باطن المحيطات القطبية، حيث يكون الماء، الذي تحجبه عن الهواء البارد طبقة ثلجية، دافئاً نسبياً. ذلك لو كانت كثافة الماء تزيد بالتجمد كما هو الحال في غيره من السوائل لقضى ذلك على الحياة في جوف البحار الشمالية والجنوبية، وتجمدت كل مياهها بل ولتسببت في كارثة من الطوفان والفيضانات على وجه الأرض.

وهذا الإبداع في خلق الله الذي عبرت عنه آية: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [سورة القمر: الآية 49] ، ليكشف عن دقة في التقدير: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [سورة المؤمنون: الآية 14].

وتوقف الحياة على الماء يبدو أمراً بديهياً إلا انه عندما يأتي ذلك في سياق آية الخلق مشيراً إلى مرحلة من مراحل الانفتاق الكوني يكون أكثر عمقاً في مخاطبة الذين كفروا وأكثر تحدياً لعقولهم.

ومثل هذه الأسئلة التي تتحدى عقول الغافلين أو الضالين تتكرر في القرآن، تسألهم عن خلق السموات والأرض لتقرر حقيقة يمكن أن يتوصل إليها العقل. وقد ظل هذا التحدي قائماً من عهد نوح عليه السلام عندما خاطب قومه: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) [سورة نوح: الآيات 15-16]. والسموات السبع – كما أسلفنا – هي مراتب الوجود أدناها كوننا المادي المنظور، الذي تمثله السماء الدنيا بما تحتويه من بروج ومن شمس وقمر:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا) [سورة الفرقان: الآية 61] . والشمس هي السراج الوهاج الذي يشع منه الضياء وتنبعث منه الطاقة التي تعتمد عليها الحياة على وجه الأرض. أما الضوء المنعكس من على سطح القمر هو النور. وحقيقة الفرق بين طبيعة الشمس والقمر لم تكن معروفة قديماً بالوضوح العلمي الذي أشارت إليه الآية والتي لم تُفهم إلا بعد تقدم العلم الطبيعي في عصور متأخرة. ولقد ناقش العلم الطبيعي قضايا كونية تولدت عنها جملة من الأسئلة كانت إجابة القرآن – كما أسلفنا إزاء تمدد الكون – موجزة وبلغية وحاسمة. ومثل هذه القضايا ما يتعلق بخلق الأرض وكيف تكونت عليها الجبال الرواسي، وكيف تتوغل جذور هذه الرواسي عبر القشرة الأرضية كما تتوغل الاوتاد، وكيف يؤدي وزنها إلى التحكم في استقرارها وفي حركتها من أن تميد وتضطرب. وما توصل إليه العلم الحديث بشأن هذه القضايا كان القرآن قد أوجزه في آيات بيّنات في قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) [سورة النبأ: الآية 6-7] . كذلك في قوله الحكيم: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ). [سورة لقمان: الآية 10] . لقد ظل الانسان ردهاً من الزمان يجهل حدود الأرض ولم يتأكد من كرويتها إلا بعد ما طاف حولها. ولم يكتشف مفسرو القرآن الأوائل سر الإعجاز القرآني في السؤال المتضمن لعبارة: (وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) [سورة العاشية: الآية 30] ، واكتفوا بما ظهر لهم من معنى قوله تعالى: (وَأَلَى الْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا) [سورة ق: الآية 7] أو قوله تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا). [سورة نوح: الآية 19] . اكتفوا بما يبدو من معنى مباشر لهذه الآيات وبما ألفوه من انبساط في سطح الأرض ظاهر على مد البصر. إن المتبصر في هذه الآيات يرى أن سطح الأرض المنبسط في كل موضع يجب أن يكون ممتداً إلى ما لا نهاية. والسطح الوحيد الذي يتميز بهذه الصفة الهندسية هو السطح الكروي. وهو الذي يتيح تكور الليل على النهار والنهار على الليل على نحو ما نشهده في الطبيعة بتعاقب الليل والنهار ووفق ما تقول به الآية: (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) [سورة الزمر: الآية 5] . ويمكن كذلك استنباط ما يشير إلى كروية الأرض من قوله تعالى: (...حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَائِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْن بِالْأَمْسِ....) [سورة القمر: الآية 50] . وأمر الله يأتي للناس جميعاً في وقت واحد كلمح بالبصر كما في قوله تعالى: (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) إذن الليل والنهار المذكورين في الآية يعبران عن وجهي الكرة الأرضية. وهنا يجدر ان نلاحظ أن هذه النتيجة العلمية المستوحاة من هذا الفهم المتقدم لا تتناقض ما ذهب إليه المفسرون الأوائل في فهم آية: (وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ). بل تعمق معناها وتربط دلالاتها بسنة الله في الطبيعة كما تكشف عن إعجاز الخطاب القرآني.

وهذه الصفة الكروية للأرض ناتجة من قوة التثاقل التي تجعلها متماسكة مستقرة أثناء دورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس. ومن هذا الدوران تنجم ظواهر طبيعية وتأثيرات بيئية تكون مدعاة للتدبر في آيات الله وسننه الكونية عند الموقنين به كما هي وازع للاستبصار في ما يعتمل في أنفسهم من ذلك: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) [سورة الذاريات: الآيات 30-31] وآيات الخلق وكل ظواهر الطبيعة إنما تخاطب الذين يعقلون: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ

وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [سورة البقرة: الآية 164] . وهذه الآيات مع ما فيها من إعجاز هي طريق للهداية والرشاد.
خامساً: خاصية القرآن في الهداية:

شمولية القرآن للمعرفة التي تعبر عن كونه خاتم الرسالات يفيد إحتواءه على خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، كما أفاد الحديث الشريف. وهذا معنى خلوده وتجدد معانيه عبر الزمان وامتداده ليسع كل حال وكل ظرف ومكان. فخلوده هو سر إعجازه، واتساعه يجعله مصدراً للهدى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمٌ) [سورة الأسراء: الآية 9] فهو طريق للهداية والارشاد في كل أمر، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، كما حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم. وهو الفرقان بين الحق والباطل وبين الصدق والزيغ وبين الصحة والخطأ وبين الخير والشر وبين الحلال والحرام وبين الفضيلة والرذيلة وبين الإصلاح والإفساد وبين الرشده والغي وبين الهدى والضلال، فهو (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) [سورة البقرة: الآية 185] . ومما لا ريب فيه أن المتقين أحرقى بان يجدوا في كتاب الله هداهم: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) [سورة البقرة: الآية 2] ، وهذه حقيقة يدركها الذين أوتوا العلم ويرون في هذا الكتاب المنزل الحق والهداية: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [سورة سبأ: الآية 6]. وفي كل علم من العلوم يكون وجه من الهداية. والهداية في مجال العلوم الكونية تكون في الآتي:

[1] توجيه العقل للرؤية والنظر في آيات الكون:

القرآن حافل بالآيات التي تحت على التدبر في خلق الكون والتفكر في ظواهر الطبيعة. عشرات الآيات تبدأ بالسؤال التقريري كما في قوله تعالى: ألم تر أن الله، أولم يروا، أفرايتم، أولم ينظروا، أفلا ينظرون، وغيرها. ويعقب هذا السؤال التوجيهي طرح لموضوع يتعلق إما بقضية الخلق أو بسنة من سنن الفطرة او ظاهرة في الطبيعة. كمثال لهذا الخطاب القرآني نورد بعض الآيات التالية:

(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) [سورة إبراهيم: الآية 19].

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) [سورة العنكبوت: الآية 19].

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) [سورة الرعد: الآية 41].

(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ) [سورة

الزمر: الآية 31] .

(أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا) [سورة

النور: الآية 43] .

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ) [سورة

الواقعة: الآيات 68-69].

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [سورة الأعراف: الآية 185] .

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) [سورة

ق: الآية 6] .

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) [سورة الغاشية: الآية 17].

ويكون الخطاب أحياناً توجيهاً مباشراً كما في قوله تعالى:

(قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [سورة يونس: الآية 101].

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [سورة العنكبوت: الآية 20].

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) [سورة عبس: الآيات 24-25].
 (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ) [سورة الطارق: الآيات 5-6].
 (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [سورة
 الأنعام: الآية 99].
 الطريق لمعرفة الله:

إن النظر والتفكير في آيات الله الكونية يكشف عن ما تنطوي عليه من حكمة وتقدير
 واتقان وتدبير ولطف وتيسير. فها هو ذا ابراهيم عليه السلام كان يتلمس طريقه لمعرفة
 ربه بالنظر في آيات خلقه (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي..... فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ
 بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ...) [سورة الأنعام: الآيات 77-87].، حتى بلغ به المطاف إلى
 معرفة الله فأسلم وجهه حنيفاً. بهذا يكون ابراهيم عليه السلام قد استن للباحثين عن الحقيقة
 منهجاً علمياً قوياً. وهكذا عصمه الله من أن يضل وهو نبي، فأراه ملكوت السموات
 والأرض وليكون موقناً: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
 الْمُوقِنِينَ) [سورة الأنعام: الآية 75].

والنظر في ظواهر الطبيعة مثلما هو مدخل لمعرفة الله هو كذلك طريق لمعرفة سننه
 الكونية ولاكتشاف القوانين الطبيعية التي يمكن تطبيقها لتطوير وسائل الحياة الانسانية، كما
 يمكن أن نستنبط منها تصوراً لبني الطبيعة يفضي إلى نظريات تصف لنا ما يعتمل أو ما
 يمكن ان يعتمل فيها من أحداث.

فالنظرية الكونية الحديثة تقرر أن الأجسام ذات الكتل العظيمة تؤثر على هندسة
 الكون. فكلما كانت كثافتها كبيرة كلما كان الفراغ حولها منحنيًا غير مستو. لذلك فإن النجوم
 ذات الكثافة العالية تجعل مسار الأجسام حولها منحرجاً. ولعل هذا الإنعراج هو ما أشار
 إليه قوله تعالى: (وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) [سورة سبأ: الآية 2].
 وقوة التناقل الهائلة حول النجوم كثيفة المادة تجعل لمواقع هذه النجوم خصوصية في
 الخلق يمكن أن تكون سر قسم الله بها في قوله تعالى: (فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
 لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) [سورة الواقعة: الآيات 75-76].

كما أن تباعد هذه النجوم بمسافات أكبر من أن نتصورها بعقولنا إنما يعزز تفسير سر
 هذا القسم ويزيده وضوحاً. والنجم الضخم يمكن – بفعل هذه القوة المتعاضمة – أن
 تتضاغط مكوناته فيتقلص منهاراً إلى داخله حتى تتلاصق أنوية الذرات المكونة له
 وتندمج. وهذا النجم الذي انهار بناؤه وهوى إلى داخله يتكون فقط من النيوترونات، ويسمى
 لذلك نجماً نيوترونياً. ويكون له أعظم كثافة ممكنة تبلغ 1.4 بليون طن في السنتمتر المكعب
 الواحد. وتكون جاذبيته أقصى جاذبية لجسم مادي، حيث تتجلى قدرة الخالق فيما أودعه الله
 فيه من قوة. وقد يكون في ذلك سر قسمه تعالى في أول سورة النجم: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)
 [سورة النجم: الآية 1].. ولعل المقصود بالنجم الذي هوى، الشعري اليمانية التي كثيراً ما
 نشاهدها بالقرب من كوكبة الجبار متألثة بضوء لونه مائل للزرقة، وقد ورد ذكرها في
 أواخر السورة ذاتها في آية: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى) [سورة النجم: الآية 49].

إذ كانت نجماً عملاقاً فانهارت لتصبح نجماً من الأقزام. وهي من أقرب النجوم إلينا
 إذ تبعد منا حوالي 8 سنوات ضوئية. والسنة الضوئية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء
 لمدة عام بسرعة مقدارها نحو 300 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة.

واسترسالاً في التفكير في آيات الكون يمكن فهم تأثير النجم النيوتروني على البناء
 الكوني حوله، حيث يكون هذا النجم ثاقباً لبنية السماء. وهنا يمكن أن نستأنس بهذا المعنى

في فهم ما أقسم به الله: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ). [سورة الطارق: الآيات 1-2].

وربما استأنس به أيضاً من يقولون بوجود ثقب سوداء في الكون. والثقب الأسود هو نجم يعتقد انه تقلص منهاراً إلى داخله بسبب التجاذب المتعاظم بين أجزائه حتى انعدم حجمه فصار نقطة جذب لا متناه تبتلع كل ما حولها، حتى الضوء لا يمكن انفلاته أو خروجه منها، لذلك سميبت ثقباً أسود.

هذا الكون البديع:

وهكذا فإنه كلما تقدم العلم الطبيعي في فهم آيات الكون كلما تكشفنا لنا كنوز آيات القرآن. وكلما بحثنا في بناء الكون تجلى لنا الابداع في تكامل عناصره، والحكمة في توازن قواه، والروعة في انسجام أحداثه، والدقة في تناسق خلقه الذي لا يعتريه خلل: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) [سورة الملك: الآيات 3-4]. لهذا كان الخطاب القرآني موجهاً نظر المكذابين بحقيقة البعث للتفكر في بناء الكون وخلقهم مذكراً المنيبين للتبصر في روعة هذا الخلق: (أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) [سورة الغاشية: الآيات 6-8].

ومن روائع هذا النظام الرباني المحكم هذه الزوجية التي تسود في الطبيعة وتقضي إلى توازن بديع في شتى مدلولاتها. فقد أسبغها اله على الأحياء من حيوان ونبات في خاصيتي الذكورة والانوثة، كما فطر عليها كل الأشياء: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) [سورة الذاريات: الآية 49].

ومن الواضح أن "كل شيء" تعني الأزواج كلها كما في قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) [سورة يس: الآية 26]. وعبرة "مما لا يعلمون" تجعل المعنى شاملاً كل صنوف الخلق سواء في عالم الماديات أو حتى المعنويات. وامتداد معنى الزوجية ليشمل ما لا يعلمه الانسان بعد، يدعو إلى التفكير والبحث في صورها، كما أنه يمثل واحداً من أوجه الإعجاز في كلام الله عن شمول هذه الزوجية وعن تكشف انواعها كلما ازداد الانسان علماً. ولقد تجلت هذه الخاصية التكاملية في طبائع الأشياء في زوجية الشحنات الكهربائية، وفي الازدواجية الجسيمية – الموجبة للضوء وللمادة بوجه عام ومضادها، وغير ذلك من أنماط الزوجية التي ستظل مجهولة ولما يكتشفها العقل البشري كما تفيد الآية بذلك.

[2] الكشف عن الحقائق الكونية:

لايقف القرآن في مجال الهداية عند حد توجيه نظر الانسان للتفكر في حقائق الكون بل أنه كثيراً ما يتيح الكشف عن هذه الحقائق سيما في أمور يكون العقل قاصراً عن الإحاطة بها أو اثباتها بالتجربة كخبر نشو الكون ومآله الذي اسلفنا مناقشته، أو كما في قوله تعالى عن تسبيح الأشياء: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) [سورة الأسراء: الآية 44]. وعلى الرغم من عدم فهمنا طبيعة هذا التسبيح إلا انه يمكن تقريبيه للأذهان من خلال تصورنا للحركة الترددية التي تعتمل داخل البناء الذري للمادة ويحكمها قانون كمّي، أو الحركة الدورية للأجرام السماوية التي لا تكف عن سمتها التكرارية التسبيحية. كما أننا يمكن أن نفهم النمط الترددي لهذه الحركة من خلال اعتقادنا بتسبيح الكائنات المادية.

وهناك حقائق قرآنية أخرى يعجز العقل - في زماننا هذا - عن ادراك كنهها ولكنه لا يملك أن يدحضها كحديث الهدد وحديث النمل في قصة سليمان عليه السلام. وحقيقة أن العقل البشري غير مصمم لاستيعاب لغة غير لغة الإنسان، سوى ما اختص الله به نبيه سليمان. إلا أن ملاحظ العلماء تشير الى وجود طريقة للتخاطب بين أفراد كل جنس من الأحياء كما تؤكد وجود تنظيم فطري بديع لدى ممالك النمل والنحل وغيرها من الحشرات، وفي سلوك الطيور والأحياء المائية وسائر الحيوانات. وهذا ماكشف عنه كلام الله: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) [سورة الأنعام: الآية 38].

وقد تأتي الحقائق الكونية في ثنايا نص قرآني عرضاً، أو يمكن استنباطها من إشارة عابر أو من خلال إخبار غير مباشر. ومثال ذلك إنزال الحديد ورد في سياق الآية من أن فية بأساً شديداً ومنافع للناس: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ) [سورة الحديد: الآية 35].. ففي هذا ما يفيد أن هذا المعدن لم يكن موجوداً في تكوين الأرض ربما إبان الحقب السابقة لنشوء الإنسان عليها. وإن إفراده دون غيره من الفلزات يشير الى خصوصية في خواصه الطبيعية جعلت منه أداة آلية للحصول على الطاقة لمصلحة الإنسان كما هو ضروري لتوفيرها في غذائه. فمنه يتركب اليحمور (الهيموجلوبين) في الدم. واللافت للنظر هنا ان ذرات الحديد لا تتركب إلا بطاقة عالية غير متاحة في الأرض مما يفيد نزوله مركباً من خارج هذا الكوكب. ويؤكد ذلك أن النيازك التي تتساقط على الأرض بلا انقطاع ومعظمها في شكل ذرات تستقر في تربتها تتكون أساساً من عنصر الحديد الذي تمتصه النباتات ثم يدخل كأهم عنصر في غذاء الحيوان والإنسان.

حقائق مستنبطة:-

ويمكن استنباط جملة من الحقائق عن الطبيعة من خلال التدقيق في النصوص القرآنية مثال ذلك عن كروية الأرض كما أسلفنا أو عن انخفاض سطحها لأدنى حد عند الموضوع الذي دارت فيه المعركة التي غلب فيها الروم على ايدي الفرس حوالي 615م، وذلك من قوله تعالى: (غَلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ...) [سورة الروم: الآيات 2-3]. كما يمكن استنتاج قلة الأكسجين بالارتفاع عن سطحها من ما يدل عليه النص القرآني: (...وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضْلُهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّما يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ).... [سورة الأنعام: الآية 125].. أو ضرورة ترك الحصاد مثل القمح في سنبله حفظاً له من التسوس والآفات كما قد يستنبط من قول يوسف عليه السلام: (...فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ) [سورة يوسف: الآية 47]. ويمكن من قوله تعالى: (إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) [سورة الرعد 41: الأعراف 44]، أن نستنتج تزايد حرارة الأرض وما يسمى بالتأثير الصوبي أو بظاهرة الإحتباس الحراري وما يستتبع ذلك من ذوبان الجليد والتلوج وارتفاع مياه البحار والمحيطات وسطوها على اليابسة، و من ثم تفسير انقاص الأرض من أطرافها بتزايد غمرها بالماء بسبب تزايد حرارة الأرض الناجم عن تلوث البيئة. كما أن قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [سورة الروم: الآية 41]، يمكن تفسيره بالتلوث الذي يفسد الجو والأرض برأً وبحراً بسبب بعض أعمال الناس وأنشطتهم غير المنضبطة بمبادئ العدل وقيم الفضيلة وما يجره عليهم هذا السلوك من أضرار لعلمهم يؤوبوا إلى رشدهم.

وثمة استنباطات أخرى لحقائق في علم الكونيات عن خصوصية مواقع النجوم التي أقسم بها الخالق، وعن تكون جزئيات الماء في مرحلة من تطور البناء الكوني سابق لنشوء



الحياة على الأرض وغير ذلك مما ناقشناه أنفا في سياق الإعجاز القرآني وتواؤم ما قطع بصحته العلم الطبيعي مع ما يفيد مدلول النص القرآني. وبالطبع فإن التوصل الى حقائق كونية من خلال التبصر في آيات القرآن إنما يعبر عن هذا التواؤم. مثال ذلك الحقيقة المستنبطة من الخبر القرآني: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً) [سورة يونس: الآية 92]. والدالة على أن جسد فرعون مقدر له أن يبقى عبر القرون على الرغم من أنه لم ينج من الغرق حسب قوله تعالى (فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا). [سورة الإسراء: الآية 103].

وقد قدر الله أن يبرع قدماء المصريين في كيمياء التحنيط لتحقيق هذه المعجزة القرآنية إذ اكتشفت مومياء هذا الفرعون في نهاية القرن الماضي لتكون شاهدا على اعجاز القرآن وحفظه. وفي هذا تصحيح لم يرد في سفر الخروج في كتب اليهود والنصارى ازاء حادثة غرق الفرعون. ومثل ذلك، تصحيح توقيت ميلاد عيسى عليه السلام الذي يحتفل به النصارى شتاء، في حين ان في القرآن ما يشير الى أنه ولد في فصل يكون التمر فيه رطبا حسب ماتعني الآية: (وَهَرَي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا) [سورة الإسراء: الآية 102]. والنخل في فلسطين لا يثمر الرطب الجنى في الشتاء. وفي هذه الآية كذلك فائدة صحية عن جدوى الرطب لغذاء المرأة المرضع. وهو ما تؤكد التجربة. والحقائق المستمدة من الكتاب الحكيم تأتي أحيانا بصورة مباشرة، كما سبق ذكره ازاء الفائدة الطبية لعسل النحل، أو ما في الحديد من بأس ومنافع للناس أو في تطور خلق الإنسان في قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعُلُقَةَ مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ...) [سورة المؤمنون: الآيات 13-14]. وهذا الترتيب القرآني لأطوار الخلق هو ما استقر عليه علم الأجنة الحديث. وتتضح الدقة العلمية في هذا النص القرآني من استخدام "ثم" و"الفاء" في تقدير المدى الزمني لتعاقب هذه الأطوار. وخلق الإنسان من الطين، أي من الماء والتراب المكون من عناصر الأرض، حقيقة يؤكد أنها خلايا جسم الانسان إنما تتركب من هذه العناصر ومن الماء. لذلك فإن الذي يرتاب في أمر البعث لا يسنده منطق علمي. فهذا شأنه كمن حدثتنا عنهم آية: (أَنذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً، قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) [سورة النازعات: الآية 11-12] إذ يكون قد ضرب مثلا ونسي أنه مخلوق من الذرات ذاتها التي نشأت عنها هذه العظام أول مرة: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). [سورة يس: الآية 78-79]. ولقد كان الخطاب القرآني للمرتابين في البعث مؤسسا على حجة الخلق: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مِضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ...) [سورة الحج: الآية 5]. والأجل المسمى لتطور الجنين حتى يخرج طفلا يمكن استنباطه من الكتاب الحكيم حيث تصير أقل فترة ممكنة للحمل ستة أشهر. وهذه تمثل الفرق في المدة بين ما يدل عليه قوله تعالى: (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) [سورة الأحقاف: الآية 15]، وما يدل عليه قوله تعالى: (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) [سورة لقمان: الآية 14] ولقد روى أن عليا كرم الله وجهه كان قد قضى بجواز هذه المدة، خاصة إذا كان ذلك درءاً لحد الزنا. وفترة العامين هي المدة الطبيعية لاتمام الرضاعة كما ترشد اليه الآية: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ) [سورة

البقرة: الآية 333]. وهكذا نجد أن الله قد أودع في كتابه بركة من المعاني تفيض في عقولنا كلما تدبرنا آياته: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) [سورة ص: الآية 29].
العلاقة بين المعرفة الكونية والغيبية:

من ما سبق نجد أن القرآن مصدر لمعارف كونية يمكن إكتشافها إما مباشرة أو استنباطاً من نصوصه. إلا أن النص القرآني كثيراً ما يربط بين معرفة غيبية لاتكون عقولنا مؤهلة لإدراك أبعادها، ومعرفة كونية يمكن اكتسابها على نحو ماجاء في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [سورة لقمان: الآية 20]. فقصارى ما يمكن ان نراه أو نكتسبه من معرفة كونية لا يتعدى ما في الأرض أو ما يلينا من السماء الدنيا. أما بقية السماوات فعلمنا عنها علم عن غيب كما هو علمنا عن الجنة والنار وما وراء ذلك من وجود لا تستوعب عقولنا مكانه أو طول زمانه. والتطلع إلى ما يجري في السماوات العلى أو النفاذ إليها مستحيل إلا بسطان من الله: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تُتَفَقَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) [سورة الرحمن: الآية 33]. ولقد أوتي رسول الله سلطانا لينفذ من أقطار السماوات حين عُرج به فالتقى بالنبيين من قبله، كما رأى حال أمته يوم القيامة. ورأى الجنة كما رأى المعذبين في النار، ومنهم من لمّا يولد بعد في الحياة الدنيا. بهذا فإن نبينا قد شهد الماضي كما شهد المستقبل، علماً بأن الرحلة بكاملها لم تستغرق - بحسابنا للزمن - الا اليسير جداً. (.... وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) [سورة الحج: الآية 47].. ولان عقولنا مكيفة فقط لادراك ما حولنا من عالم المحسوسات فإن القرآن يمثل لنا المفاهيم الغيبية بصور يمكن استيعابها من ما في الطبيعة. فالجنة أو النار نموذج من الكون الطبيعي يقرب الى أذهاننا مفهومي الثواب او العقاب. وكما جاء في الحديث: في الجنة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. لذلك فإن القرآن في تقريبه لمشاهدها يعطي هذا المثل المحسوس: (مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...) [سورة محمد: الآية 15].

القرآن وقوانين العلم الطبيعي:

وكما أن صور الغيب يمكن تبسيطها بغرض تقريبها للأذهان وذلك عن طريق تمثيلها بما يلينا من صور الطبيعة ، فإن السنن العامة التي تحكم الوجود يمكن تخصيصها لتناسب حالات يمكننا وصفها. والقوانين الكلية يمكن اختزالها الى معادلات يمكن حلها. وهكذا فإن النصوص القرآنية التي تعبر عن مبادئ شاملة يمكن أن يستنبط منها علاقات يمكن فهمها. مثال ذلك ما أسلفنا مناقشته وأكده القرآن من إتساع مستمر في البناء الكوني ظل يحدث تحت تأثير قوى طبيعية منذ أن فتق الله السماوات والأرض. وقد أكد القرآن (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [سورة البقرة: الآية 165]، مهما اختلف نوعها وأنه (لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) [سورة الكهف: الآية 39]. وهذا يعني أن كل تغير أو حدث إنما يكون بفعل قوة . وهذا مبدأ عام يتعلق بسنة كونية. وإذا خصصناه لوصف التغير الذي يحدث في المكان والزمان لحصلنا على قانون الحركة - في صياغته الرياضياتية- الذي صار واحدا من أسس العلوم الطبيعية. وإزاء التغير الذي يحدث في حال الناس فإن القرآن قد أكد: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [سورة الرعد: الآية 11]. وهذا أيضاً مبدأ عام يفسر ما يجري من تحولات لمجموعة من الناس. فتغير حال الناس لا يحدث إلا بعد أن يحدث التغير الداخلي فيهم. فإذا انفع الناس بفكرة فإنه لا بد ان يترتب على ذلك تغير في سلوكهم

أو أنشطتهم، وقد يتزايد هذا الانفعال فيؤدي إلى ثورة أو تحول كلي في حياتهم سلباً أو إيجاباً. هذا المبدأ يمكن تطبيقه في مجال العلم الطبيعي إزاء ما يحدث من تغير في حالة مجموعة من جزيئات سايل ما. فإذا ما انفعلت هذه الجزيئات بقدر من الطاقة الحرارية فإن سلوكها يتغير، وإذا ما تجاوزت الطاقة المؤثرة حداً معيناً يزداد انفعالها فتثور فيتحول السائل إلى بخار. ومثل السائل، الغاز، فإنه إذا سخن تبدأ جزيئاته في التحرك حتى تتغير أوضاعها ثم إذا اكتسبت طاقة حرارية أكثر فإنها تتحرك جماعياً حيث يتمدد الغاز فتتغير حالته. وهذا القانون الذي يحدث وفقه هذا التغير يعرف بالمبدأ الأول في التحريك الحراري. وهو بهذا يمثل حالة خاصة من مبدأ عام في التغير أودعه الله في خلق الكون كما أودعه في نصوص القرآن. أي ان القانون الذي يفسر التغير والتحول في التكوينات الجزيئية في المادة يماثل القانون الذي يفسر التغير والتحول في المجتمعات والكيانات الانسانية.

[2] توجيه البحث العلمي:

كما اسلفنا، فإن النص القرآني في ثنايا بلاغته الرائعة يذكرنا تارة بأمر مألوف لدينا لم نوجه تفكيرنا إليها، وتارة يثير فينا التفكير داعياً للنظر في ما تتطوي عليه هذه الامور من أسرار، وإلى اكتشاف ما تشتمل عليه من حقائق. والقرآن من خلال هذه الدعوة يفتح مجالات للبحث العلمي في إطار الإيمان ويصوبه نحو غايات رشيدة ومحكمة بجملة من الموجهات والضوابط. والبحث العلمي في ظل هذه الموجهات إنما يلبي أهداف العبادة ويتأصل على حقائق الدين ومقاصد الشرع ويلتزم بقيم الفضيلة وينأى عن مزلق الضلال. والخطاب القرآني يثير قضايا للبحث تتعلق بمواضيع مختلفة في مجالات العلوم الطبيعية. فهذا سؤال في علم الأحياء عن خلق الإبل ومدى مواعمة وظائف أعضائها للبيئة المحيطة بها وما وراء ذلك من دقة وتقدير. وسؤال آخر في مجال الكونيات عن القوى التي تحكم البناء الكوني في ما يحيط بنا من سماء. وسؤال في علم طبقات الأرض عن نشوء الجبال وانتصابها. وسؤال في علم الهندسة الفراغية عن طبيعة سطح كوكبنا الأرض الممتد بلا انقطاع. هذه الأسئلة التي تمثل مواضيع للبحث والدراسة يعرضها القرآن بأسلوب غاية في اليسر والروعة البلاغية: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ). [سورة الغاشية: الآيات- 2017]. وتأتي مواضيع البحث من خلال النصوص القرآنية مستجيبة لاهتمامات الباحثين في فروع العلوم المختلفة، إما في أسلوب إخباري، أو إقراري كما في قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا. وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاجًا. وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا. وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا. وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا. وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) [سورة النبا: الآيات 6-16].

ارتباط العلم الطبيعي بالإيمان:

لقد بينا في ما سبق أن العلم الطبيعي قاصر بطبيعته عن أن يعطي كل الحقيقة عن الوجود. لذلك لا بد أن يتأصل على حقايق الغيب حتى يتسق مع غيره من المعارف. كما أوضحنا إمكان أن يكون لمباديء هذا العلم أصل في القرآن. وبما أن التدبر والتفكر في خلق الكون عبادة يحث عليها الدين، فإن المعرفة الكونية في حقيقتها ضرب من العبادة ومولج إلى الإيمان برب الكون وخالقه. لذلك ارتبط الإيمان بالله وخشيته بالعلم: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [سورة فاطر: الآية 28]، أولو الألباب الذين يذكرون الله في كل أحوالهم ويرون آياته تعالى في الكون فيتدبرونها ويتقون. حيث قال تعالى: (إِنَّ فِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ). [سورة آل عمران: الآيات 190-191]. فهؤلاء المتقون يجعل الله لهم فرقاناً بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، ويمتزج في قلوبهم ذكر الله مع التفكير في خلق الله، فتنناغم قلوبهم مع عقولهم خلافاً لما عليه الغافلون من الناس. فأولئك: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [سورة الأعراف: الآية 179]. وقد قال الله في هؤلاء: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) [سورة الحج: الآية 46]. وهنا ما يفيد إلى أن القلب ليس مجرد مضخة لدفع الدم في جسم الانسان بل هو مستودع معلومات وجهاز إدراك و أداة يفقه بها المرء ويعقل. وهذا ما يتواءم مع نتائج ابحاث حديثة عن أن نقل قلب شخص بزراعته مكان قلب شخص آخر ينقل خصائص المنقول منه إلى المنقول له.

العبادة الشاملة:

فالذين يسيرون في الأرض ويتفكرون في ما ينتظم الكون من بديع خلق الله تتفعل قلوبهم بذكره ويدركون الحكمة والقصد في ما خلق ويحمدونه تعالى على آلائه. فالشمس، هذا السراج الوهاج يمثل المصدر الأساس للحياة على الأرض إذ تبعث بضياؤها مفعماً بالطاقة التي تبخر مياه البحار وتعيدها غيثاً يسيل على الأرض أنهاراً فتنتبت الزروع وتخضر المروج كما نبهنا لذلك القرآن: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا. وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا. لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا. وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا) [سورة النبا: الآية 13-16]. وهذه الطاقة الهابطة من السماء تخزنها النباتات في أوراقها وثمارها لتستحيل غذاء للحيوان والانسان بوساطة عملية التمثيل الضوئي. ولعل هذا ما يكشف عن سر قسم الله (والشمس وضحاها) [سورة الشمس: الآية 1]. أي وتجلياتها في الطبيعة والحياة. والله يوجهنا للنظر في ما يجري في الطبيعة وإلى القصد من ورائه: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ. أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعَبْنَا وَقُضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَانِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) [سورة عبس: الآية 24]. فهذا بعض ما افاض الله به من نعمه على الانسان. (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، إن الله لغفور رحيم) [سورة النحل: الآية 18]. لذلك يجب على المؤمنين المتدبرين في خلق الله أن يستغفروا ربهم على ما قد يعتريهم من غفلة عن ادراك هذه النعم التي أودعها الله في الطبيعة، ولعلمهم عندئذ يرددون دعوة نوح عليه السلام: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) [سورة نوح: الآيات 10-20].

إن مقتضى عبادة الله في شمولها يعني استشعار نعمه تعالى في كل حال واستحضار عظمته وجلاله في كل مأل، والنظر فيما تنطوي عليه آياته الكونية من حكمة وتدبير، واتقان وتقدير، ولطف وتيسير، والخلوص بذلك إلى التسليم له تعالى بالعبودية والطاعة. وهذا هو مقصد الخلق كما يقول الله: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [سورة

الذاريات: الآية 56]. فهم مجبلون على أن يتواءم سلوكهم مع ناموس الله في الوجود وتنسجم حركتهم مع سننه تعالى في الفطرة: (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [سورة آل عمران: الآية 82].
الشعائر التعبدية والحركة الكونية:

والإسلام كرهاً هو ما تجبل عليه سنة الخلق، والإسلام طوعاً أكثر ما يتمثل في أداء الشعائر التعبدية. وإن هذه الشعائر التي تعبر عن ذكر الله وشكره قد ارتبطت بحركتي الأرض بالنسبة لأظهر جرمين سماويين يشاهدهما الناس منها، هما الشمس والقمر، وما ينتج عن ذلك من ظواهر طبيعية كتتابع السنين والشهور وتعاقب الليل والنهار: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِيفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [سورة الفرقان: الآيات 61-62]. والمؤمنون يذكرون الله بالصلاة عند كسوف الشمس وخسوف القمر، فهما آيتان من آيات الله ومن أوجه نعمه التي تستوجب الشكر له. وإنما تقام الصلاة لذكره تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) [سورة طه: الآية 14]. ولقد ارتبطت هذه الشعيرة بمواقيت يلتزم المؤمنون بأدائها فيها: (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا) [سورة النساء: الآية 103]. وينطلق صوت الأذان خمس مرات كلما دارت الأرض دورة حول نفسها ليبيت في كل أرجاء الكون ويعلن للعالمين نداء التوحيد. وتقام الصلاة كلما استدارت الأرض بالنسبة للشمس: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ) [سورة هود: الآية 114].، فريضة قبل شروق الشمس، أحد طرفي النهار، وفريضتين في طرفه الآخر قبل غروبها من عند الزوال، وتنتين بعد غروبها إلى غسق الليل. وهنا يجب أن نلاحظ الحكمة والإعجاز في أن هذه الصلوات خمسة ولكن أوقاتها المذكورة في القرآن ثلاثة. ذلك لأن القرآن خطاب لكل الناس في جميع أحوالهم وفي كل مواقعهم من الكرة الأرضية وفي سائر فصول السنة. فمن حال إلى حال ومن موقع إلى موقع ومن فصل إلى فصل يمكن الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، في السفر والمرض والمطر، كما يتداخل وقتا الظهر والعصر في شمال الكرة الأرضية شتاءً، ووقتا المغرب والعشاء صيفاً. وفي ذلك إعجاز مبين وحكمة للعارفين ويسر للعابدين.

والصلاة عماد الدين وعمود الإسلام، لذلك فإن الله خصها بوضع مرموق، إذ لم تفرض في الأرض كسائر العبادات ولكن في احتفال سماوي عجيب. وذلك عندما عُرج بالنبي إلى الملاء الأعلى حيث تقصر قوانين الطبيعة عن وصف هذا الحدث ولكنها تشير بهذا إلى امتداد في الوجود ورآء الكون المادي. ومثل الصلاة، سائر العبادات الأخرى يتساوق فعلها مع حركة الكون. فكما ان الصلاة أكثر العبادات تكراراً كلما دارت الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس فإن الزكاة أكثر ارتباطاً بدورة الطبيعة في حياة الأنعام وعند حصاد الزروع: (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) [سورة الأنعام: الآية 141]. لذلك فأداؤها كفريضة يتكرر كلما دارت الأرض مرة حول الشمس. وعندما تاخذ الشمس والقمر والأرض في دورانها وضعا معيناً، بعد حالة الاقتران التي يكون فيها القمر في وضع بين الأرض والشمس ومحاذياً لكتلتيهما يتيح انعكاس ضياء الشمس من على سطح القمر إلى الأرض، يمكن رؤية الهلال. وبذلك تحدد بداية الشهور ونعلم عدد السنين والحساب كما بين لنا القرآن: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ) [سورة يونس: الآية 5]. في هذه الآية تمييز علمي بين الضياء الصادر من منبع الشمس والنور المنعكس من على سطح القمر، كما أن كلمة ضياء تفيد الجمع أو

التعدد وهو ما يعرف بأطراف الضوء بألوانه السبعة المعبرة عن تفاوت أطواله الموجية، وفي هذا دقة وإعجاز علمي. وبعلم الحساب نتحرى رؤية هلال شهر رمضان وكل الشهور التي ترتبط بهذه الظاهرة الكونية التي تتكرر اثنتي عشر مرة في كل عام كما جاء في كتابه تعالى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ) [سورة التوبة: الآية 26]. ومن اللافت للنظر هنا ان كلمة شهر وردت في كتاب الله 12 مرة ومثل ذلك كلمة اليوم تكررت بعدد أيام السنة الشمسية. وهذا جانب من الإعجاز القرآني العددي الذي قد يتسع البحث فيه خارج إطار هذه الدراسة. وإضافة لذلك فإن صوم رمضان موقوت بدورة الأرض حول نفسها للافطار عند الغروب وللإفطار عند الفجر. ولأن رؤية الهلال لا تثبت لكل الناس، إذ لا يشتركون جميعهم في ليل واحد ومنطقة واحدة، فإن مواقيتهم تختلف على جانبي الكرة الأرضية، ولكنهم جميعهم يؤدون فريضة الحج بميقات زمني واحد. وفي هذا نجد الإعجاز بَيِّنًا في قوله تعالى عن الأهلّة: (قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) [سورة البقرة: الآية 189].. فأفراد الحج دون غيره من العبادات المرتبطة برؤية الأهلّة كالصوم والزكاة راجع لكون الناس يكونون في موضع واحد هو مكة المكرمة فلا تتعدد الأهلّة لديهم. أما لغيرهم المنتشرين على سطح الأرض فتتعدد رؤية الأهلّة مع انحناء سطح الأرض. وما كانت لتتعدد لو كان هذا السطح مستويًا، إذن لرأى كل الناس الهلال في وقت واحد، ولكن بزوايا مختلفة. وهذا التفاوت في وقت ظهور الأهلّة يدل على كروية الأرض، كما يدل على دقة التعبير القرآني وإعجازه. ومع ارتباط الحج بدوران القمر والأرض فإنه كذلك يتكرر مع دورانهما حول الشمس. وفي أداء مناسك الحج رمزية متميزة تحاكي دوران الكواكب حول الشمس في شعيرة الطواف أو السعي بين الصفا والمروة، وهذه الحركة الدورانية تكون دائماً من اليمين إلى الشمال فيما يسمى (عكس عقرب الساعة) وهي سمة غالبية في الكون في حركة الأشياء وسلوك الأحياء.

وخلاصة القول، إن العبادات في ارتباطها بحركة الكون تخرج الإنسان من حياة رتيبة إلى كنف حياة منفعة بذكر الله. والعبادة في معناها الشامل تجعل سلوكه متناغماً مع سنن الله.

خاتمة:

كل ما أوردنا في هذه الدراسة من دلالات آيات القرآن الحكيم متبصرين في محتواها، متفكرين في معناها، متدبرين في مرماها، إنما تكشف عن خصائص هذا الكتاب الحكيم. فهو خطاب متفرد من حيث أنه محفوظ في نصوصه، شامل في مضامين هذه النصوص ومتميز بتجدد فهمها وإدراك ما تنطوي عليه هذه المضامين. وبالتأمل في معناه وإعمال الفكر في محتواه تتجلى صورة المزاجية بين ما أنزل الله في القرآن وما أودع في الكون من آيات وما يتكشف عن هذه المزاجية من مواءمة وتناغم وانسجام تنم عن إيجاز في القول والتعبير وإعجاز في الخلق والتقدير والأمر والتسيير (...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ). [سورة الأعراف: الآية 54]. فكتاب الله هو المصدر الجامع الكامل للهداية في شتى وجوهاها. وكما انه يهدي للمعرفة الكونية فإنه كذلك يهدي لما سواها من المعارف والعلوم. ويستمد العلم بطبيعة الكون وتكشف حقائقه إما مباشرة من تلقاء النصوص القرآنية أو استنباطاً منها. ويتسع مجال الكشف عن هذه الحقائق كلما تعمق الباحثون عنها في إدراك معاني آيات الله المنزلات مع التدقيق في فهم آياته الكونيات، والقرآن لا ينفذ منهله ولا ينضب معينه، فكلما اكتسب الإنسان علماً عن ما يحيط به من الكون والطبيعة والحياة تفتق عقله عن ادراك معان جديدة في هذا الكتاب المعجز. وهكذا

يدرك – في زماننا هذا – المتفكرون في آيات التنزيل دلائل كونية لم يكن العلم بها متاحاً لسلفنا الصالح من مفسري القرآن الكريم. وسوف يأتي بعدنا في الأجيال اللاحقة – إن شاء الله – ممن يكتسبون العلم ويدركون من أسرار القرآن وخفايا الكون ما لا ندركه اليوم. إلا إن اكتساب العلم مرتبط بالتقوى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) [سورة البقرة: الآية 282]، مثلما ترتبط الهداية بها (ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) [سورة البقرة: الآية 1].

. والعلم الكوني الموصول بالله هو الذي يقود إلى تقدم حقيقي في حياة الناس. ولقد شهدت الحضارة الإسلامية ازدهاراً ملحوظاً عندما ترعرع العلم الكوني في أحضان الإيمان بالله واستهدى علماء الطبيعة بالقرآن. فقد برع هؤلاء العلماء في شتى المعارف الكونية، وشهد لهم التاريخ باسهاماتهم الرائعة وانجازاتهم الواسعة.

وأخيراً ندعو علماء الأمة أن يعيدوا سيرة أسلافهم بأن يستمدوا العلم من القرآن بعقول مفتوحة على آيات الله الكونية ويكتسبوا العلم من الكون بعقول مدركة لدلالات آياته القرآنية. وهذا ما نعنيه بالتواؤم البديع والتناغم الرفيع بين إيقاعات الوحي المنقول ودلالات العلم المعقول.

المراجع

أولاً مراجع أساسية:

- القرآن المجيد.
- تفسير الجلالين.
- في ظلال القرآن لسيد قطب.
- صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم – بيروت 1402 هـ.
- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم – إعداد صبحي عبد الرؤوف عصر – دار الفضيلة – دمشق – 1405 هـ - 1984 م.
- معجم الأحاديث النبوية – على أقراص صخر الحاسوبية المدمجة.
- ثانياً: دراسات وبحوث للمؤلف تكمل الموضوع
- تأصيل المعرفة أسسه وأهدافه، مجلة التأصيل، العدد 6 يناير 1998 م. إدارة تأصيل المعرفة – وزارة التعليم العالي والبحث العلمي- الخرطوم- السودان.
- حول الخصائص القرآنية في مجال العلوم الكونية – مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية – العدد 3 المحرم 1418 هـ - أم درمان – السودان.
- التأصيل الإسلامي ومنهجية العلوم الطبيعية – من أعمال حلقة العمل العلمية حول قضايا تأصيل المعرفة – مركز التنوير المعرفي – الخرطوم – مارس 2005 م.
- حول أخلاقيات البحث العلمي – مجلة أبحاث الإيمان – العدد 11 شوال 1420 هـ - المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.
- إضاءات قرآنية حول ضياء الشمس وضحاها-مجلة أبحاث الإيمان-العدد 17 ربيع الأول 1426 هـ - المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.
- هلال رمضان بين نظرية الرؤية ورؤية النظر-مجلة مجمع الفقه الإسلامي – العدد الأول السنة الأولى 1422 هـ الخرطوم - السودان.
- الإسراء والمعراج بين المنقول والمعقول-مجلة أبحاث الإيمان – العدد 12 جمادى الأولى 1421 هـ - المركز العالمي لأبحاث الإيمان – الخرطوم – السودان.
- ثالثاً: مراجع أخرى
- الإسلام يتحدى – وحيد الدين خان – مترجم من الأردنية – صادر عن المجمع العلمي الإسلامي، دار البحوث العلمية – ندوة العلماء - لكنو - الهند – منشورات الشركة المتحدة للتوزيع بيروت – لبنان – الطبعة الثانية 1401 هـ.
- التصور الإسلامي للوجود – حسن الحيارى – دار البشير للنشر والتوزيع – عمان – الاردن 1409 هـ.
- آيات قرآنية في مشكاة العلم – يحيى المحجري - دار النصر للطباعة الإسلامية – القاهرة – مصر – 1991 م.
- بنية المادة بين الوجود والعدم – محمد ممدوح الخطيب – دار النشر للتوزيع – عمان – الاردن – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – 1416 هـ.
- القوة العظمى – بول ديفز – ترجم من الانجليزية – وزارة الثقافة والاعلام – بغداد – العراق – 1989 م.
- The Matter's Myth, by Paul Davies & John Gribbin
- ترجمة م . علي يوسف علي، تحت اسم اسطورة المادة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1998 م.

- La Bible, Le Coran et la Science – Par Maurice Bucaille, Seghers, 31 Rue Falguière, 75,725 Paris, Cedex 15.
ترجم من الفرنسية بعنوان: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة - دار المعارف - الطبعة الرابعة - القاهرة - مصر - سبتمبر 1977م.
- من محاضرات الشيخ عبد المجيد الزنداني - جامعة الإيمان - صنعاء - اليمن.
- من محاضرات د. زغلول النجار - هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكة المكرمة.